رعاية شجرة الوحدة الوطنية (*)

فارق كبير بين أن ترعى الشجرة وتواليها بالرى والتخصيب ، وبين أن تتركها أو تنساها وتنصرف عنها حتى تذبل فيستدعيك ذبولها إلى ملاحقتها بما فاتك أن ترعاها به .. هذا التدارك اللاحق قد ينجح بلطف المقادير ، وقد لا ينجح !

ومن الخطأ البين أن تترك الشعوب مصائرها إلى لطف المقادير ، أو تنتظر غافلة ساهية حتى تدهمها قارعة توقظها من الرخاوة وقلة التفطن، وتستدعى استخراج كل ما لديها لمداركتها مداركة كثيرًا ما تكون متسرعة بل سطحية تحت ضغط الحدث ، حتى إذا انحسرت موجته ، عادت «ريما» لعادتها القديمة ، وغرقت فيما كانت فيه من سبات !

من الملاحظ المؤسف أننا قد صرنا ساهين غافلين عن رعاية شجرة الجماعة الوطنية ، لا نفيق إليها ، ولا نتعامل معها إلاّ بالقطاعى ، حين تدهمنا واقعة مفاجئة أو نعتبرها كذلك ، بينما أسبابها متحركة تتنامى من زمن فى الأعماق ونحن عنها غافلون !

عيب المعالجة القطاعى ، أنها تتوقف عند ملابسات الظرف ، وتقتصر رؤيتها وعلاجها عليه ، ولا تحيط بالأسباب العامة التى تتراكم وتسرع بأى ظرف عارض إلى سوء الفهم والإحتقان !

(*) الأهرام ٢٨/ ٧/ ٢٠٠٨.

من المؤكد أن هناك تراكمات تزحف ، لم يعد مقبولًا معها أن نتركها للطف المقادير أو نتعامل معها بالقطاعى . الفارق بيننا وبين أسلافنا، أنهم كانوا على العكس مما بتنا إليه ! متيقظين متفطنين منتبهين مهتمين برعاية هذه الشجرة وتغليق أى منافذ يمكن أن تجلب إليها مفاهيم مغلوطة أو ملابسات تخلخل وحدة هذا النسيج وتؤدى بالتراكم إلى زعزعته .. ناهيك بتعريضه للأخطار والأعاصير !

فى عام ١٩٣٧ ، حينما بلغ الملك فاروق سن الرشد بالتقويم الهجرى ، وريم الاحتفال بتتويجه ، إقترح الأمير محمد على بن توفيق الوصى على العرش أن يجرى التتويج فى احتفال دينى يعقد فى القلعة ، ويتولى فيه شيخ الأزهر تسليم الملك سيف جده الأعلى محمد على باشا فى احتفالية موازية للإحتفال الرسمى ، يحضرها أمراء الأسرة المالكة وكبار رجال الدولة. وراق الإقتراح للملك !

يروى الأستاذ محمد التابعى فى كتابه «من أسرار الساسة والسياسة» أنه التقى يومها بمصطفى النحاس خارجًا من لقاء الملك ويبدو عليه التجهم ، فلما سأله : «خير يا رفعة الباشا»؟ أجاب النحاس : «لا مش خير أبدًا ..أبدًا .. الملك كلمنى عن حفلات التولية وعايز حفلة تقام فى القلعة ، وشيخ الأزهر سامع يا تابعى يقلده فيها سيف جده محمد على ، والأمراء يكونوا حاضرين الحفلة ولابسين الهدوم اللى كان جدودهم بيلبسوها أيام محمد على .. انت عارف ياسى التابعى الدستور بيقول إيه»؟!

لفت النحاس النظر فى تيقظ فطن إلى مخاطر هذا الطابع الدينى المروم إسباغه على التتويج ، منوهًا إلى أن الملك ملك لجميع المصريين .. مسلمين

ومسيحيين .. وتمسك بأن يجرى التتويج طبقًا للدستور أمام الهيئة المشتركة لمجلسى الشيوخ والنواب .. وفى خطابه أمام مجلس النواب عقب على رغبة الاحتفال الدينى بأنها : «إقحام للدين فيما ليس من شئونه» .. وأنه يرأس حكومة تحترم الإسلام وتنزهه ، وتحرص أيضًا على احترام الدستور .

أيامها أيدت الصحافة موقف مصطفى النحاس ، وأيده عبد الرحمن الرافعى فى كتابه «فى أعقاب الثورة المصرية» .. مؤكدًا أن اعتراض النحاس جاء فى محله وطبقا لما ينص عليه الدستور. وقد كان ما أراده النحاس .

هذا التيقظ الفطن ، هو الذى كفل رعاية شجرة الوحدة الوطنية وحفظ لنسيجنا الوطنى وحدته التى تجلت فى ثورة ١٩١٩ وتجلت لاحقا فى معركة أكتوبر ١٩٧٣ ، بل وفى ١٩٦٧ التى أصاب الدكتور المسيرى حينما أسبغ عليها «إنتشار ١٩٦٧» الذى عانت منه إسرائيل ، ولم تحقق بعده سوى إخفاقات متتالية لا تزال تترى حتى الآن رغم جلبة الأسلحة وحرب الدمار الجارية !

مهم جدًا أن نخرج من زقاق المعالجات المتقطعة ، لنستعيد ما كنا عليه من رؤية شاملة .. ظنى أنها باتت تحتاج بشدة إلى ما دعوت وسأظل أدعو إليه من تكوين آلية وطنية على نظام المائدة المستديرة بين حكماء المسلمين والأقباط ، لتشخص فى الغرف المغلقة ، وتتلمس سبل الرعاية الدائمة بمعاونة مخلصة من كافة الجهات المعنية بسلامة الوطن ووحدة نسيجه الذى عاش به وقاوم كل الأعاصير !